1

الاستخبارات في أوروبا
قبل الحرب العالمية الثانية وأثناءها

صورة الواقع وحساب ختامي

obeikandl.com

obeikandl.com

صورة الواقع وحساب ختامي

كيف كانت الاستخبارات تعمل في الميدان الأوروبي قبل الحرب العالمية الثانية وأثناءها؟. تغري الإجابة عن هذا السؤال بكتابة تاريخ الاستخبارات، وبعرض صلته بمجريات الحرب. غير أن هذا المشروع سيبقي مليئاً بالثغرات، لأن أجهزة الاستخبارات عصية ببساطة على التأريخ، فهو يستهدف التقاط الحقيقة كاملة، بينما تؤثر هي العمل في الخفاء، وتتستر على العاملين فيها، وتحرص أن لا تترك وراءها علامات تدل عليها، وأخيراً، لأن ما هو سري يخشى أنوار البحث.

تعتبر الينابيع، التي يمكن أن تمدنا بالمعلومات حول مجريات الحرب العالمية الثانية، شحيحة. وهي إما عكرة بدرجة ما أو تشوبها الألوان عن عمد، وعلى الأخص منها تلك التي تنبع من بلدان الكتلة الشرقية، حيث الوثائق نادرة، ولا يعرف المرء على الدوام إن كانت مزيفة ولأي قصد. هذا بالتأكيد هو السبب الذي جعل المؤرخين يخلون الساحة لكتَّاب التحقيقات والهامشيين، الذين يعجزون عن كبح جماح خيالهم.

ومع ذلك، يبدو أن بالإمكان إلقاء نظرة عامة على أهم إنجازات الاستخبارات في أوروبا، بمجرد أن تتم معرفتها بطريقة موثوقة. وهو ما سأحاول عمله هنا. تمارس الأحداث الجزئية سحرها في أغلب الأوقات، لأن الاستخبارات تتعامل مع ما هو إنساني، وفي حالات غير نادرة مع شؤون مفرطة في إنسانيتها. ولكن التمويه الذي يشوبها يمكن أن يزول،

فتصبح عندئذ حرة النظرة إلى خلفياتها، التي تستحق الملاحظة والرصد. وكما هو الحال في علم الجنايات، لا ينجح هذا دوماً، لذلك يبقى الغموض محيطاً بوقائع كثيرة. وللعلم، فإن الاستخبارات لم تجتذب فقط «الرجال الغامضين»، بل استقطبت كذلك طبائع «فاوستية». مثلما غدت في الحرب العالمية الثانية رسالة رجال على قدر عظيم من الذكاء. وعلى كل حال، فإنني لن أكتب سِفراً في علم نفس أو فلسفة الاستخبارات. ولن أحللها نفسياً، وإن كانت الفصول اللاحقة ستقدم بعض الملاحظات والمداخل الأولية إليها.

سيقتصر موضوعي على وصف الواقع وتقديم رصيد ختامي، مع نظرة عامة على ما صار معروفاً حول نقاط ثقل الأحداث الحربية. ما الذي حدث في السر، أو تم الحصول عليه بواسطة الجاسوسية، أو الخيانة، وترك أثراً في مجرى الحرب؟. ما هي الوسائل والطرائق، التي كانت أجهزة الاستخبارات المختلفة تفضل استخدامها خلال ذلك؟. كيف ولماذا بدت بعض هذه الوسائل والطرائق قديمة، بينما بدا بعضها الآخر تقدمياً وناجحاً؟. هذه هي الأسئلة، التي ستطرح ويجب أن يرد عليها قدر المستطاع. هذا الكتاب لن ينحاز لأحد، بل سيخدم الحقيقة. لكنه سيدحض قبل كل شيء الحكم المسبق الشائع، وسيبرهن أن العمل الاستخباري ليس، أو ليس في معظمه، جاسوسية، أي مغامرة وفراراً وأعمال عنف، أو «جنس وجريمة»، مع أنه على علاقة مع هذا كله، الذي يتم على هوامشه، بينما يتكون مركزه على الدوام من أفعال دقيقة، مجهدة ومنهجية، تتطلب من القائمين بها التمتع بضمير باحث ورهافة حس خبير جنائي وصبر جيولوجي يفك أسرار الآثار. بغير ذلك، لن يمكنه الوصول إلى نتائج مؤكدة، أي إلى صورة عن العدو تتفق مع حقيقته. وبذلك وحده يستطيع تقديم معلومات إلى القيادة السياسية والعسكرية، تجعل من المستحيل القيام بمغامرات سياسية وحربية. وإنه

ليمكن الإتيان ببراهين تؤكد أن شعبة «الجيوش الأجنبية شرق» في قيادة أركان الجيش الألماني فعلت هذا كله بضمير ومسؤولية[5]، لكنها فشلت دوماً في إقناع هتلر بمعارفها.

ثمة لحظات ثلاث غيرت بصورة خاصة أجهزة الاستخبارات خلال الحرب العالمية الثانية، هي:

1 ـ تعاظم الخيانة الوطنية لأسباب وبواعث أيديولوجية / سياسية، التي جعلت بالإمكان الوصول إلى مصادر معلومات غنية، على هذا الجانب كما على ذاك.

2 ـ سفسطة تقنية الإشارة، التي جعلت الإبلاغ الفوري عن المعلومات ممكنا على أكثر المسافات بعداً.

3 ـ اختراق الاتصالات اللاسلكية المعادية، رغم ما بلغته فنون التشفير من تقدم.

بذلك، تراجعت أهمية الجاسوس من الطراز القديم، وتعاظمت بالمقابل أهمية التقويم والتفسير في المراكز الاستخبارية، حيث غدت معرفة البلدان الأجنبية، واللغات والشعوب، والنظم الأيديولوجية من متطلبات العمل الناجح، التي تزايدت أهميتها باستمرار. والحق، أن الاستخبارات تطورت خلال الحرب العالمية الثانية إلى ضرب من الاختصاص العلمي، فكانت تجمع مزق المعلومات المتناثرة في لوحة كلية مليئة بالمعاني، فاتحة بذلك الطريق إلى إلقاء نظرة عميقة على أسرار العدو الصميمية، بينما كانت أجهزة التنصت، واعترافات الأسرى تساعد في ميدان المعارك، وكان تقويم الوضع يتحول إلى فن من فنون التنبؤ. تلك كانت أهم منطلقات التطور، الذي حدث بعد سنة 1945.

غيرت اتصالات الجيش والطيران والبحرية اللاسلكية البيئة الاستخبارية تغييراً كبيراً. واستطاع الاستطلاع عن بعد تقديم معلومات ومعارف تزايدت

كماً ونوعاً في النصف الثاني من الحرب، جعلت منه «مصدراً موثوقاً»، بالمقارنة مع معلومات الجواسيس ومراكزهم المكلفة، التي تناقصت وشحت في هذه الأثناء، وكانت باهتة في أغلب الأحيان. وعلى كل حال، فإن المعلومات الجزئية التي كان يتم الحصول عليها من الأثير، لم تكن تتحول إلى معلومات ذات معنى، إلا عندما تؤكد أو تكمل أو توسع معارف سابقة. يقول العماد هالدر، رئيس الأركان العامة للجيش الألماني، في ملاحظة وثائقية غير منشورة، شيئاً سيبقى صحيحاً على الدوام حول الأهمية المتعاظمة للاستطلاع ولمكافحة التجسس باللاسلكي.

فهو يكتب سنة 1952: «تثبت تجربة الحرب العالمية الثانية في المجال الذي نتعامل معه هنا أن اتصالات اللاسلكي المعادية كانت أغنى وأفضل مصدر معلومات بالنسبة إلى مختلف مراتب القيادة الألمانية. وهذا ما لا يستطيع تغييره أعظم انضباط لاسلكي وأذكى فن تشفير، وإن كان يقدر أن يحد منه في أحسن الأحوال، علما بأن التدابير، التي قد تتخذ للحد منه، ستتناقص فاعليتها، بقدر ما يطول أمد الحرب. تحتاج القيادة العسكرية، في عصر المحرك، إلى معرفة الحركات التي تتزايد سرعتها باضطراد لواسطة تفاهم سريعة العمل. وسيكون على التقنية ابتكار وسائط تحمي الاتصالات اللاسلكية الخاصة وتحصنها ضد الجانب المعادي، أو تصميم طرائق جديدة كل الجدة لاتصالات لاسلكية عصية على التنصت وحصينة حياله». كانت الإشارة السبب الأول لتبدل نقاط ثقل العمل الاستخباري. لم يعلن أحد هذا السر خلال الحرب، لذلك تعيش إلى يومنا هذا رواية التجسس، كما يعيش فيلم التجسس في التصورات المتقادمة لرأي يجهل التبدل الذي حصل. وإننا لندين إلى استطلاع اللاسلكي في البر والجو والبحر بمعلومات كثيرة على أعلى درجات السرية، حصلنا عليها بين سنتي 1939 و1945، سكتت عنها مذكرات رجال الاستخبارات، أو ذكرتها بصورة عابرة ؛ نذكر منها، بالتوافق

مع مجرى الحرب، ما حصلت عليه القيادة الألمانية، ثم الروسية، بينما كان البريطانيون يطورون واسطة استطلاع إلكترونية تبين أنها كانت قاتلة بالنسبة إلى الغواصات الألمانية[6]. هكذا تمكنت القيادة الألمانية من الحصول منذ بداية الحرب سنة 1939 وحتى أيار من سنة 1940 على معلومات كثيرة من هذا المصدر الموثوق، كما يخبرنا قائد «الجيوش الأجنبية غرب»، الجنرال اللاحق ليس. بدورهم، استخدم الروس بدءاً من سنة 1942 هذه الوسيلة بنجاح متعاظم، كما كانوا يتركون في المناطق التي ينسحبون منها متخصصين في التنصت على اللاسلكي، ليخبروهم بتحركات القوات الألمانية، أو يرسلونهم في مهام استطلاعية وراء الخطوط الألمانية، قبل قيامهم بهجمات مضادة. لقد كان هؤلاء الجهة التي مهدت الطريق للانتصار النهائي الذي أحرزه الروس. كانت مكافحة التنصت الألمانية على علم بنشاط الروس، لكن عدد الرجال، الذين خدموا استخبارات ألمانيا في جميع جبهات وميادين القتال، وبلغ إثني عشر ألفاً، كان لا يكفي لمكافحتهم، ناهيك عن كشفهم. وعلى كل حال، فإن «نظرة عامة تغطي كافة الظروف» (كلاوزفتز) تشير إلى أن الاستخبارات كانت خلال الحرب العالمية الثانية من قوام مغاير لذاك الذي لا زال الناس يرونه أو يعتقدون عموماً بوجوده. تدين أجهزة الاستخبارات بأكثر معلوماتها أهمية للتقنية الجديدة وللطرق العلمية، التي رفعت المكانة الظاهرية لرؤسائها ولهيئات أركانهم، وزادت إنجازاتهم العملية، بما كانت تتطلبه من اجتهاد كبير، وذكاء مرهف، وموهبة تنسيقية رفيعة. أما في المراكز، فقد تحول العمل الاستخباري إلى علم تطبيقي، وهذا تطور يمكن متابعته اليوم بفضل أدب المذكرات الشخصية. وقد أخبرتنا بتفاصيله مذكرات رئيسي شعبتي «الجيوش الأجنبية» في الأركان العامة للجيش الألماني، الجنرال أولريش ليس عن «الجيوش الأجنبية غرب» والجنرال جيهلن عن «الجيوش الأجنبية شرق»، حيث يبدو العمل الاستخباري في ضوء جديد.

ثمة حكم مسبق واسع الانتشار، يرى أن العمل الاستخباري السري يحقق وظيفته الرئيسة عبر الحصول على معلومات سرية، تقدم كمواد إلى المراكز .هذا الرأي يجهل أن هذه المعلومات يجب أن تفحص وتقارن وتجمع، أو بكلمة أخرى، أن تقوّم، وإلا استحال تكوين الصورة العامة الضرورية لتحليل الوضع، التي تمكننا من الحكم على وضع العدو والتنبؤ بنواياه المحتملة. هذه التدابير تجعل العمل الاستخباري أنجح، بقدر ما تكون متقنة. لكن سؤالاً معذباً طرح نفسه خلال الحرب على الجانب الألماني، هو الآتي: ماذا يجب أن نفعل بالمعلومات التي حصلنا عليها؟. وما نفع تقويمات الأوضاع؟. هل تصل إلى القيادة الأعلى، فتتعين قراراتها وتتأثر بها؟. يجب أن تكون الإجابة بالنفي بالنسبة إلى هتلر، الذي أقلع الجهاز الاستخباري الممتاز، المسمى «الجيوش الأجنبية شرق»، عن العمل له، بعد تسريح هالدر في صيف 1942[7].

كان الروس أكثر نجاحاً في هذا الميدان من الألمان: عدوهم الرئيس في الحرب العالمية الثانية. وإن كانوا لم يحققوا نجاحاتهم إلا بعد إخفاقات شديدة تعرضوا لها في الفترة التي كانوا يعلقون خلالها أهمية كبيرة على الجاسوسية من النمط القديم. وعلى كل حال، فإن المعلومات التي كان يتم الحصول عليها، وتحليل الوضع الذي كان يتم انطلاقاً منها، كانا يرسلان بالتأكيد إلى ستالين، الذي كان يضع ما في تقارير الاستخبارات من معلومات مفيدة في خدمة القيادة العسكرية العليا بمجموعها. هذا ما كان عليه الأمر أيضاً في مقر قيادة أيزنهاور، الذي انتمى رئيس استخباراته سترونج إلى «الدائرة الداخلية» للمقر الأعلى لحملة القوات الحليفة، وتمتع بصلاحية الدخول دون موعد على القائد الأعلى، والتحدث إليه في أي مناسبة تتطلب ذلك. لم يتمتع رئيس مكافحة التجسس الألماني الأميرال كاناريس أو

الجنرالان ليس وجيهلن، بصلاحيات مماثلة[8]، لأن هتلر صار عديم الاهتمام تقريباً بوضع العدو، لأن قيادة الجيش الألماني العليا تبنت سنة 1939 رأياً إيجابياً حول قيمة الجيش الفرنسي وإرادته القتالية، ولأنه بدأ يزعم بعد نجاح الحرب الصاعقة في الغرب سنة 1940، أنه ينفرد بمعرفة الحكم على العدو، وأصر على مزاعمه هذه حتى النهاية الكارثية للحرب.

هذه النظرة العامة ليست سوى مقدمة لموضوعنا، ذلك أن نشاط أكثر أجهزة الاستخبارات الأوروبية أهمية خلال الحرب وتدابيرها يستحقان المقارنة بعضهما مع بعضهما الآخر، مثلما يستحقان دراسة تحليلة متأنية، خاصة وأن لهما جوانب متعددة، بقيت غامضة ومحاطة حتى في أيامنا هذه بأسرار كثيرة، يمكن لملخص أولي حولها أن يختصر في النقاط الآتية:

تتراجع أهمية الجواسيس والعملاء، بمقدار ما يطول أمد الحرب. لم تطور التقنية إمكانات جديدة تنقل الأخبار بسرعة وحسب، بل طورت كذلك وسائل سريعة للحصول عليها، وخاصة عبر ما يسمى الاستطلاع عن بعد. ويقدم فن فك رموز الاتصالات المعادية نتائج مثيرة، تجعل نقطة ثقل عمل الأجهزة الاستخبارية مرتبطة اليوم به.

رغم ذلك، لم يكن ممكناً بالنسبة للقوى التي كانت تخوض الحرب، التخلي عن الجاسوس من النمط القديم، أو عن «رجل الثقة». فقد أثبت المخبر في موقع كالقيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية أنه شخص لا يمكن الاستغناء عنه. بهذه المناسبة، نذكر أنه لم يتم إلى اليوم كشف حقيقة ما كان يسمى «خط الفايكنج»، الذي ارتبط بالأركان العامة السويسرية، وما زال الغموض يلف أيضاً العلاقات التي بدأت سنة 1942 بين أرفع جهات الـ إس إس وبين آلن دالس من مكتب الخدمات الاستراتيجية الأميركية في سويسرا.

بالمقابل، أكد عملاء موثوقون أن بورمان، وكان منذ سنة 1941 أحد «نبلاء» الرايش الثالث، لجأ إلى السوفيات، لكن العثور على جمجمة في برلين اعتبرت «رسمياً» جمجمة مدير الرايش السابق، ألقى بعض الشكوك على صحة هذه الرواية. هل خان بورمان وكيف؟. إنها مسألة يحيط بها الشك[9]. بقي هجوم الأردين، وهو أهم حدث وقع سنة 1944، سرياً بالنسبة إلى الجهة الأخرى، لأن في العمل الاستخباري أنواعاً كثيرة من الخدع والتضليل وفنون الحجب، وفيه كذلك ضروب من خداع الذات وخيبة النتائج بالنسبة إلى طرفيه، حفل عاما 1944 و1945 بوقائعها.

من الضروري أن نميز مبدئياً بين جانب «رومانسي» وآخر علمي رصين يخالطان العمل الاستخباري، كما يؤكد كينيث سترونج، المتخصص في دراسة العدو داخل مقر أيزنهاور. أما الجانب الرومانسي، فيدور حول الجواسيس والعملاء، الذين يوجد بينهم دوماً «رجال شرفاء غامضون»، بينما يفضل جهاز الاستخبارات المتخصص بالعدو «المصدر الوثيق»، الذي تمثله أقسام الحصول على المعلومات فيه.

استغنت بعض أجهزة الاستخبارات عن الجواسيس والعملاء، قبل الحرب العالمية الثانية وخلالها، وحصلت على معلوماتها بفضل أحاديث أديرت ببراعة، وتقويم منهجي انصب على مضمونها. إلى هذا، لجأت هذه الأجهزة كذلك إلى المصادر المفتوحة، كالصحف والمجلات المتخصصة (هذا ما كانت تقوم به بنجاح أيضاً شعبة «الجيوش الأجنبية»)، التي كانت الأعمال الاستخبارية الفسيفسائية تتكامل في مكاتبها، متى توفرت شروط بينها:

1 ـ أن يتحدث من يجرون التقويم لغة سكان البلاد التي يراقبونها.

2 ـ أن لا تنقطع علاقات حسن الجوار معها، حتى عند وقوع صراع. وهناك أمثلة مهمة على العمل الناجح، الذي تنجزه هذه المكاتب، نجدها في سويسرا حتى سنة 1945 وفي تشيكوسلوفاكيا حتى سنة 1939[10].

تشدد النظم الشمولية إجراءات السرية، لتجعل حصول الجانب المقابل على الأخبار شديد الصعوبة. ينطبق هذا على ألمانيا النازية وبدرجة أكبر على الاتحاد السوفياتي. لكنه يوجد أعداء معلنون لهذه النظم، يعيشون داخلها ويتعاطفون في الحرب مع عدوها، كانوا مصدر معلومات مهم بالنسبة إلى أجهزة الاستخبارات إبان الحرب العالمية الثانية. نذكّر هنا بالفرع الألماني من حلقة التجسس، التي كان تسمى «روته كابيله»، وبالمخبرين العاملين في خدمة «الجيوش الأجنبية شرق» داخل الاتحاد السوفياتي، أو «الكيزلنجيين» في بلدان أوروبية كثيرة.

على أن المسألة لا تتعلق فقط بالحصول على المعلومات «بذاتها»، بل ترتبط بدرجة أكبر بتقويمها في المركز، وبالصورة التي يصنعها العاملون فيه للعدو، من أجل القيادة، حيث تصل المعلومة السرية إلى كامل أبعادها. ثمة، على كل حال، سلسلة كاملة من الحالات تبين فيها أن هذه الصورة كانت عديمة القيمة، لأن «فوق» رفض أن يخصها باهتمامه أو رفض تصديقها. وقد كرست فصلاً خاصاً من هذا الكتاب لمعالجة هذه المشكلة، التي لا زالت أجهزة استخبارات كثيرة تعاني منها اليوم أيضاً.

يعمل جهاز الاستخبارات بطرق مختلفة في البلدان المختلفة. ويختار كل جهاز تدابيره العملية الخاصة به، ويتمتع بمزايا أو يعاني من نقاط ضعف، بحسب الوقت والشعب والنظام السياسي السائد ووضع المجتمع. وتتعين الأجهزة بالطابع القومي للأمة، والمنشأ التاريخي للدولة، و«روح

الشعب» (هيجل)، حتى إنه ليصدق القول: إن لكل جهاز مخابرات خطاً خاصاً به، ولكل عامل لاسلكي طريقته الخاصة.

لئن كانت الحرب النظامية والمفتوحة ميداناً للمصادفة، كما يؤكد كلاوزفيتز، فإن الحرب في الخفية، حرب الاستخبارات، هي هذا الميدان بامتياز. ذلك أن معارف مهمة أو أخطاء جسيمة تنجم هنا عن المصادفة: العدو الرئيس للعملاء، الذين كثيراً ما تفضحهم مصادفة غالباً ما تكون سخيفة. فلا مفر من أن يفكر هؤلاء بكل شيء بالمعنى الحرفي للكلمة، حين يغيرون هويتهم الشخصية.

هل استجابت «إدارة الاستخبارات» الألمانية لهذا المطلب، إذا كانت إنجازاتها الأكثر أهمية ترجع إلى مكافحة التجسس، أي إلى الشعبة الثالثة؟.

يلتزم الوكلاء بتعهد يجبرهم على الصمت مدى الحياة؛ وهو التزام ينطبق على رؤسائهم بصورة خاصة، فتراهم ضنينين بـ«كشف الأسرار»، وهي صفة تتساوى فيها مذكراتهم الشخصية جميعها. غير أنه يوجد هنا أيضاً عمل فسيفسائي يتيح لنا إلقاء نظرات أعمق على معلوماتنا، بمجرد أن نخضعه لتقويم شامل.

حققت استخبارات الاتحاد السوفياتي نجاحاً متميزاً خلال الحرب العالمية الثانية، وخاصة منذ سنة 1942، لأنها كانت تعرف جيداً الإمكانات الملموسة للحصول على المعلومات في بلدها الخاص. أما نجاحها، فيرجع أساساً إلى خبير في سلاح الإشارة، هو اللواء ثم العماد إيفان تيرنتييفتش بيريسيبكين، الذي رُفِّع سنة 1945 إلى مارشال في سلاح الإشارة اعترافاً بإنجازاته[11].

عندما يتأمل المرء الاستخبارات الأوروبية بين سنتي 1937 و 1945،

يجد أن طرقها ترجع إلى ظروف ما قبل الحرب ومجرياتها، وإلى التغيرات السياسية والتقنية والنفسية خلالها. وقد أثبتت الاستخبارات عموماً أنها تقدمية ومتعددة الجوانب وغنية بالأفكار، بحيث تستحق أن تكون مادة عرض إجمالي، سأقدمه للتو، لا سيما وأنه جاء وقت نزع الحجب قدر المستطاع عن الاستخبارات، وإبلاغ الرأي العام بما كانت عليه أمورها، علماً بأن الحقيقة كانت أشد إثارة من روايات وأفلام التجسس الرديئة، التي نقرأها ونشاهدها اليوم. فقد وقعت، وسط جدية السرية المبالغ كثيراً بها، ألاعيب وحيل لاسلكية أخذ المزاج البشري حقه فيها. وكانت هناك أيضاً مصادفات ونوادر تستحق الرواية، تتحدى غرابتها المحزنة أو الساخرة أي «خيال». والحق، إنه ينقصنا كاتب مسرحي من طراز جرابه، يستطيع تصوير بعض الأحداث في قالب «مفعم بالمعاني العميقة، سواء كان هزلياً أو ساخراً أو مضحكاً». نشر جميع رؤساء الاستخبارات الغربية على وجه التقريب، الذين لعبوا دوراً مهماً خلال الحرب العالمية الثانية، مذكراتهم الشخصية قبل نهاية سنة 1972، فقدمت أقوالهم مستندات مهمة وانضوت في الصورة الإجمالية التي نحاول تحليلها هنا. إن ما حجبه هذا وأفصح عنه ذاك كان غالباً غنياً بالدلالات بالنسبة لها. وساعدت في تشكيلها كذلك المعلومات الإضافية المؤكدة، والرسائل اللاسلكية التي تم الحصول عليها، ومنها تلك التي تبادلتها موسكو بين عامي 1941 و 1944 مع القائم بالأعمال السوفياتي في سويسرا، ويعتبر أمراً مثيراً للاهتمام مقارنتها بذكريات ألكساندر رادو، التي نشرت خلال الفترة الماضية في بوادبست تحت اسم «دورا»، لما تلقيه المقارنة من إضاءات لاحقة على أمور معينة، حتى إن بقي غيرها غارقاً في الصمت.